غزوة تبوك

تبعات الأمة الإسلامية

كان فتح مكة إيذانًا بدخول الجزيرة العربية كلها فى حظيرة الإسلام، وتكتُّل العنصر العربى كله تحت لوائه؛ فقد أدرك العرب بعد فتح مكة وبعد إسلام قريش، أنه لا مناص لهم من الدخول فى الإسلام إن عاجلا وإن آجلا. ذلك أن العرب - كما يقول ابن إسحاق -: "إنما كانت تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش؛ كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، وقادة العرب.. لا يُنكرون ذلك؛ وكانت قريش هى التى نَصَبَت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه. فلما افتُتحت مكة، ودانت له قريش ودَوّخها الإسلام، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله - كما قال الله عز وجل - أفواجًا، يَضربون إليه من كل وَجه"؛ وأصبحوا بين مسلم قد دخل فى الإسلام فصار من أهله، ومشرك قد تهيأ

للدخول فيه بين يومه وغده. فما هى إلا دورة العام حتى صارت جزيرة العرب مَوْئل الإسلام، وصار أهلها من العرب هم أهله وحُماته.

ومن هنا أخذت أمة الإسلام تتكيَّف فى الجزيرة تكيفًا دوليًا، وتظهر فى الوجود كدولة لها كل المقومات التى تحفظ كيانها، وتضمن سلامتها، وتحميها من كل ما يعوق سيرها وتقدمها.. لم يكن المراد بها أن تكون أمة كسائر الأمم؛ إنما كان المراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، مهمتها أن تصلح الفساد وتقوِّم العِوَج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ يدفعها إلى ذلك إيمانها بالله وحده، ورغبتها فى أن تقوم الحياة فى هذه الأرض على الأساس الذى وضعه الله لعباده، وأن تسير فى الطريق الذى يحبه ويرضاه لهم.

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام فى الجزيرة العربية، ولأجل هذه الغاية وضعت لها القواعد التى تضمن سلامة مجتمعها من كل آفة، وحماية أرضها من كل عدو، وإعداد أفرادها للنهوض بأعباء الأمة المثالية الخيِّرة، ولاحتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات، وما يترتب على مطاردة الشر وإشاعة الخير من تكاليف. وهى مهمة ثقيلة

التبعات باهظة التكاليف، ولكنها المهمة التى ندب الله لها أمة الإسلام، وجعلها - من أجلها - خير أمة أخرجت للناس.

كان قيام الدولة الإسلامية مهددًا لمصالح الروم فى جزيرة العرب

بينما كان رسول الله ﷺ يُعد أمته لهذه المهمة العظيمة، ويطهر جوها من آثار الفساد والشر، ويمحو من أرضها معالم الشرك والوثنية، ويبعث السرايا إلى من حوله من قبائل العرب فتهدم الأصنام وتنشر الإسلام.. كان الروم فى شمال الجزيرة ينظرون إلى هذه الحوادث نظر التوجس والخوف؛ ذلك أن الروم كانت لهم مصالح شتى بالجزيرة العربية، وكانت هذه المصالح تتأثر - ولا شك - بما يجرى فى الجزيرة من حوادث.. كانت لهم تجارة تمر خلال الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب؛ وكان لهم أتباع من العرب فى شمال الجزيرة يأتمرون بأمرهم ويخضعون لسلطانهم، كما كان لهم فى قلب الجزيرة أنصار يعتمدون عليهم فى حماية تجارتهم؛ وكانت النصرانية - وهى دين الدولة الرسمى - يدين بها الغساسنة أتباع الدولة من العرب، كما يدين بها عدد غير قليل من العرب الأحرار فى الشمال والجنوب.

كانت هذه كلها مصالح يحرص الروم على بقائها خالصة لهم، وكان من العوامل التى تساعد على بقاء هذه المصالح خالصة للروم، أن العرب كانوا - بطبيعة حياتهم - قبائل متفرقة، ولم تكن لهم وحدة جامعة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم، وكانت كل قبيلة إنما يهمها أمر أفرادها أو أمر حلفائها إن كان لها حلفاء؛ ومن هنا كانت كلمة العرب فى تفرق دائم، وكان من صالح الروم أن يستمر هذا التفرق بين العرب، ليستمر سلطانها مبسوطًا على أتباعها منهم، وليستمر جانب غيرهم من العرب مأمونًا على مصالحها فى نواحى الجزيرة، ولكى لا يستطيع العرب أن يقفوا أمام الروم صفًّا واحدًا فى ذات يوم، فيكلفوا الدولة عناء تفريقهم إذ هم تجمعوا.

فلما ظهر الإسلام فى جزيرة العرب، وأخذ يوحد كلمة العرب ويجمع صفوفهم تحت لوائه، وظل صوته يعلو ثم يعلو حتى طرق أسماع الملوك من حوله، ومحيطه يتسع ثم يتسع حتى كاد يضم أطراف الجزيرة.. أخذ الروم يتنبهون لخطر هذا الحادث الجديد. ولعل أول ما نبههم إليه تلك الدعوة الجريئة التى وجهها رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، يدعوه فيها إلى الإيمان بالله وحده، وإلى اتّباعه فيما يدعو إليه، وإلى دعوة من وراءه من الروم وغير الروم إلى الدخول فى الإسلام، ويحمّله فيها

تَبِعة التقصير فى الإذعان لهذه الدعوة، وفى تبليغها إلى من وراءه من الأتباع والأنصار.

والتاريخ يقص علينا أن قيصر الروم لم يكن يجهل خطر هذه الدعوة، بل كان هو أول من صرح بما لها من خطر على سلطان الملوك ومهابة الدول؛ فقد جعل هرقلُ - حين وصلت إليه رسالة رسول الله ﷺ يسأل عن رجل من العرب يكون من قوم هذا النبي ليخبره خبره، حتى عثر على أبى سفيان بن حرب، فجعل يسأله سؤال العارف المتفحص عن كل ما يريد من أمره؛ حتى إذا علم علمه وعرف حقيقته، قال لأبى سفيان: "... إن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمىّ هاتين".

كان الروم يتابعون سير الدعوة متابعة دقيقة

كانت دولة الروم إذن على علم بدعوة الإسلام، وكانت تقدر ما لها من خطورة الشأن، وتعلم أن هذه الدعوة ستمس مصالحها مساسًا كبيرًا، وأنه ينبغى لها ألا تُغْفل أمرها أو تستنيم إلى جوارها. ولعل واقعة «مؤتة» كانت أول عمل قام به الروم لدرء هذا الخطر عن دولتهم، ولإخماد هذه الدعوة التى ظنوها شرارة لا تلبث أن تنطفئ؛ فلما رأوا أنصارها ليسوا من الهوان كما تصوروا، أخذوا ينظرون إليها نظرة الجد والاهتمام، وجعلوا

يتعرفون أخبارها، ويتابعون سيرها متابعة دقيقة. وكان لهم عيون ينقلون إليهم هذه الأخبار، ويوقفونهم أولا بأول على كل ما يجرى بين رسول الله ﷺ وأصحابه.

فهذا كعب بن مالك يذكر من حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى «غزوة تبوك» ونهى رسول الله أصحابه أن يكلموه.. أن ملك غسان بعث إليه بكتاب يقول فيه: "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة؛ فالحقْ بنا نواسِك". ودولة الغساسنة كانت حينذاك تابعة لدولة الروم؛ فلولا أن الروم كانوا يتابعون أخبار الرسول وأصحابه، لما كان من الحتم أن يصل مثل هذا النبأ إليهم، ولا كان من الطبيعى - لو أنه وصل - أن يهتم به ملك غسان هذا الاهتمام.

مسجد الضرار

وفى قصة «مسجد الضرار» طرَف آخر، يشير إلى ما كان من هذه الصلة بين الروم وبين المنافقين من أهل المدينة؛ فقد ذكرت الروايات أن أبا عامر الراهب لم يطق البقاء فى المدينة، بعد أن ظهر فيها أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره على هذا النبى، فوعده ومنّاه

وأقامه عنده؛ فكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والرّيب يَعِدُهم، ويمنيهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدًا، ويغلبه على أمره، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له مَعْقِلا يقدَم عليهم فيه مَن يرسله بكتبه إليهم، ويكون مرْصَدًا له ولهم إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، حتى بنوه وأحكموه، ثم أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: "يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية؛ وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه" - يريدون بذلك أن يُقِرهم رسول الله على بنائه وإثباته . فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنا على جَناح سفر وحال شُغل، ولو قدمنا - إن شاء الله تعالى - أتيناكم فصلينا لكم فيه».. فلما قفل ﷺ راجعًا من تبوك، ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم.. نزل عليه الوحى بخبر مسجد الضرار، وما قصد إليه بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، ومن الإرصاد فيه لمن حارب الله ورسوله من قبل؛ فبعث رسول الله ﷺ إلى هذا المسجد مَن هدمه قبل مقدمه المدينة.. وفى هذا الحادث يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وتفريقًا بَيْنَ الْمُؤمِنِينَ وَإِرْصادًا لِمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَاذِبُون * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّس عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّل يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيه﴾[1].

الروم يعدون عدتهم للقضاء على دولة الإسلام

لم يكن الروم إذن بمعزل عن دعوة الإسلام، ولم يكونوا بحيث يجهلون ما يَجِدُّ من أخبارها وحوادثها، فلما فتح الله على رسوله مكة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فياضة فى نواحى الجزيرة، أيقن الروم أن الخطر يوشك أن يواقعهم، وأنه لا بد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره. وكانت دولة الروم لا تزال فى عنفوانها وقوتها، ولم يكن قد مضى على انتصارها على دولة الفرس غير بضع سنين، وكان لديها من القوة والعتاد ما تظن أنها قادرة به على تحطيم أمة الإسلام، وهى لا تزال وليدة فى المهد.

ومن أجل ذلك أعد الروم عدتهم للقضاء على هذه الأمة الناشئة، قبل أن يشتد أمرها ويتفاقم خطرها؛ ولعلهم أرادوا أن يهاجموها فى عُقْر دارها، ليقطعوا دابرها ويفرغوا فى التَّوّ من شأنها؛ فجمعوا ما شاءوا من الجموع وأعدوا ما شاءوا من

---

(١) سورة التوبة آيتا ١٠٧، ١٠٨.

العتاد، وأخذوا أهبتهم لقطع تلك الفيافى البعيدة والصحارى الواسعة.

وبلغ رسولَ الله أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجْلَبت معه من قبائل العرب لَخْمٌ وجُذام وعامِلةُ وغسّان، وقدّموا مقدماتهم إلى البَلْقاء؛ فكان لابد أن يفكر رسول الله ﷺ فى دفع هذا العدوان عن أمته، وكان أمامه - كما يقول المؤرخ بودلى - طريقتان لمقابلة هذا التحدى: أولاهما أن يدع الرومان يتغلغلون فى صحراء بلاده ثم يقابلهم حيثما يحلو له، والثانية أن يهجم عليهم بنفسه. وكانت الأولى هى الأيسر والأسهل، ولكنها قد تؤدى إلى فِقْدانه بعض القبائل التى حالفها حديثًا؛ فاختار الطريقة الثانية.

الرسول يدعو لملاقاة الروم فيتنافس المخلصون فى تجهيز الجيش

وكان من الطبيعى - وقد صارت جزيرة العرب موئل دولة الإسلام - أن يقع عبء الدفاع عنها على أهلها من العرب الذين أسلموا؛ فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم، وأعلمهم المكان الذى

يريد ليتأهبوا لذلك. وخطب ﷺ فى الناس، فحض على الجهاد وأمر بالصدقة، ورغب أهل الغنى فى الخير والمعروف، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين؛ فتبادر المسلمون ينفقون من أموالهم، ويتنافسون فى تجهيز جيشهم.

فانفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير وخمسين فرسًا، وجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم هى كل ماله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتى أوقية من الفضة، وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً يقال إنه تسعون ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً كثيرًا، وتصدق عاصم ابن عدى بتسعين وسقًا من التمر. وساهم النساء بكل ما قدَرْن عليه من حُليّهن، فكن يُلقين فى ثوب مبسوط بين يدى رسول الله ﷺ ما بأيديهن من المسَك والمعَاضد والخواتيم، وما بأرجلهن من الخلاخيل والخدَمات[1]، وما بآذانهن من الشُّنوف والأقراط، وما بأعناقهن من العقود والقلائد. وتنافس المسلمون فى البذل، حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما:

---

(١) المسك: أسورة تلبس فى معصم اليد. والمعاضد: أسورة تلبس فى العضد. والخدمات: أنواع من الخلاخيل التى تلبس فى الرجل.

"هذا البعير بينكما تعتقبانه"، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض مَن يخرج.

وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارَوْن فى تجهيز الجيش كل بحسب طاقته؛ فمن استطاع أن يجهز غير نفسه جهز بقدر ما يستطيع، ومن لم يستطع جهز نفسه وكفى. وعجز نفر من فقراء المسلمين عن تجهيز أنفسهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحمِلَهم على ما عنده من فَضْل الركائب؛ ولم يكن عند رسول الله منها فضل، فجعل يصرفهم ويقول لهم: ﴿لا أجدُ ما أحملكم عليه﴾. فانصرفوا وعيونهم تفيض من الدمع، حزنًا على ما فاتهم من شرف الجهاد، بسبب فقرهم وعجزهم عن تجهيز أنفسهم.

وأخذ المنافقون ينتحلون الأعذار ويثبطون الهمم

أما المنافقون فقد أخذوا يتعللون وينتحلون الأعذار ليتخلفوا عن الركب؛ وكانوا من الأغنياء القادرين على تجهيز أنفسهم وتجهيز غيرهم، ولكن النفاق ضرب على قلوبهم فلجأوا إلى الحيلة يعتذرون، وجعلوا يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود فيأذن لهم ويُعْرض عنهم. ولم يكتف المنافقون بأن يقعدوا، بل جعلوا يثبطون الناس ويخوفونهم لقاء الروم، ويُرْجفون برسول

الله، صلى الله عليه وسلم، ويقولون فيما يقولون: "يغزو محمد بنى الأصفر مع جَهْد الحال والحر والبلد البعيد! أيحسب محمد أن قتال بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنكم بأصحابه غدًا مُقَرَّنين فى الحبال.. !" وكان العرب ينظرون إلى دولة الروم حينذاك، كما ننظر نحن اليوم إلى دول أوربا وأمريكا. ﴿وجاء المعَذِّرون من الأعْراب لِيُؤْذَن لهم وقعد الَّذينَ كذَبوا الله ورسوله﴾[1] ولكن ذلك لم يمنع المسلمين أن يُعدوا للخروج عدته، وتتابع الناس يتوافدون على المدينة من كل صوب، حتى زاد عددهم على ثلاثين ألفًا.

خرج الرسول إلى تبوك فى ثلاثين ألفًا

وضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، واستخلف عليه أبا بكر يصلى بالناس، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة؛ وعقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر، ودفع رايته العظمى إلى الزبير، ودفع راية الأوس إلى أسَيد ابن حُضيَر، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر، وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء أو راية؛ وخرج فى شهر رجب من السنة التاسعة (سبتمبر وأكتوبر ٦٣٠)، قاصدًا

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٠.

إلى ناحية الشام، فى ثلاثين ألفًا من الناس، والخيل فيها عشرة آلاف فرس. وكان عبد الله بن أبىّ خرج فى حلفائه من اليهود والمنافقين، فعسكر بهم إزاء عسكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ؛ فلما أجمع رسول الله السير، تخلف عنه عبد الله بن أبىّ ومن كان معه، كما تخلف عنه فى غزوة أحد.

قاسى المسلمون فى هذه الرحلة مشقة بالغة

ولم يكن الطريق سهلا، ولا السفر قريبًا، ولا الوقت ملائما للسير؛ إنما "كان ذلك فى زمان عُسْرَة من الناس، وشدة من الحر، وجَدْب من البلاد.

وحين طابت الثمار والظلال، فالناس يحبون المُقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص فى الحال من الزمان الذى هم فيه"[1]؛ ولكنه الجهاد لدفع عدو مهاجم، ودرء خطر جاثم على الأبواب، فما كان المؤمنون - وهم أهل الدعوة وحماتها - لينكلوا عن الجهاد، مهما تكن الأسباب غير مواتية، ومهما تكن الظروف غير ملائمة : ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدِينَةِ وَمَنْ حوْلَهُمْ مِنَ الأعْرَابِ أنْ يتَخَلَّفُوا عَنْ رسُول الله وَلاَ يرْغَبُوا بأنْفُسِهِمْ عَنْ نفْسِهِ ذلِكَ بأنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظمَأ ولاَ نَصَبٌ ولا مخمصَة فى سَبيلِ اللهِ

---

(١) ابن إسحاق

ولا يَطَئُون مَوْطِئًا[1] يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلَا ينالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلَّا كُتِب لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالحٌ إن الله لَا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ * ولا يُنْفِقُونَ نفَقَةً صَغِيرةً ولَا كَبيرَةً ولا يقْطَعُون واديًا إلَّا كُتِب لَهُمْ لِيَجْزِيَهُم الله أحْسَنَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقد قاسى رسول الله ﷺ وأصحابه فى هذه السَّفرة مشقة بالغة وعنتًا كثيرًا؛ فقد اجتمع فيها إلى بُعد الشُّقَّة وشدة الحر، جَهدُ الحال وشُح المئونة وقلة الظَّهْر[3]، حتى سماها الله تعالى: ﴿ساعة العُسْرة﴾. روى الإمام أحمد فى تفسير قول الله عز وجل: ﴿لقد تابَ الله علَى النبىِّ والمهاجِرِينَ والأنْصَار الذينَ اتَّبَعُوه فى ساعةِ العُسْرة..﴾[4] قال: "خرجوا فى غزوة تبوك: الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا فى حر شديد، وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفُضُوا أكراشها ويشربوا ماءها؛ فكان ذلك عسرةً فى الماء، وعسرة فى النفقة، وعسرة فى الظَّهر".

وقال قَتادة: "خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لُهْبَان الحر[5]، على ما يعلم الله من الجَهْد[6]؛ فأصابهم فيها جهد

---

(١) النصب: التعب، والمخمصة: الجوع؛ والوطء: السير.

(٢) سورة التوبة آيتا ١٢٠، ١٢١.

(٣) الظهر: الركائب.

(٤) سورة التوبة الآية ١١٧.

(٥) لهبان الحر: شدة الحر.

(٦) الجهد: المشقة.

شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفَر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها"

وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: "خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلا، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع.. وحتى إن الرجل لَينحرُ بعيره فيعتصر فَرْثَه[1] فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عوَّدَك فى الدعاء خيرًا، فادع الله لنا! فقال: «أوتحب ذلك»؟ قال: نعم. فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء، فلم يَرْجِعْهما حتى قالت السماء - أى آذنَت بمطر - فأطَلَّت ثم سكَبَت[2]، فملئوا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر".

كانت هذه الرحلة الشاقة امتحانًا تميز فيه المؤمنون الصادقون من المنافقين

لقد كانت هذه المشقة التى عاناها المسلمون فى السير إلى تبوك امتحانًا من الله لهم، أراد به تمحيص المؤمنين

---

(١) الفرث: بقايا الطعام فى المعدة.

(٢) الطل: المطر الخفيف، والسكب: المطر الدافق.

واستخلاصهم، وإعدادهم لاحتمال مشاق الجهاد فى سبيله، ولينظر مبلغ صبر الصابرين وصدق الصادقين فى سبيل الذَّوْد عن دينهم، فكان لا يحتمل هذه الشدة إلا الذين صدق إيمانهم ورسخت عقيدتهم؛ أما الذين نافقوا وتظاهروا بالإيمان، فقد تضعضعوا وخارت عزائمهم، فكانوا يتسللون من وراء الصفوف راجعين.

قال ابن إسحاق: «ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فكان يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول: «دعوه، فإن يَكُ فيه خير فسيُلْحِقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». وتلوَّم[1] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتتبع أثر رسول الله ماشيًا. ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا لَرَجلٌ يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كن أبا ذر»! فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو ذر. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أبا ذر! يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»..

---

(١) تلوم: تأخر.

أبو خيثمة

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم الغيبة حتى تخلّفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خَيْثَمة؛ وكانوا نَفَرَ صِدْق لا يُتّهمون فى إسلامهم. فأما الثلاثة الأولون فقد تراخت بهم العزيمة، وتمادى بهم الفتور، وأغراهم الظل والماء بالقعود حتى قعدوا، وكان لهم مع رسول الله ﷺ شأن أنزل الله فيه قرآنًا؛ وأما أبو خيثمة فقد تدارك أمره قبل فواته، فلحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا خيثمة رجع - بعد ما سار رسول الله أيامًا - إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريش لهما فى حائطه[1]، قد رَشّت كل منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله فى الضَّح[2] والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ،

---

(١) الحائط: البستان يحوطه سور من البنيان.

(٢) الضح: لهب الشمس وحرارتها.

وامرأة حسناء، فى ماله مقيم؟ ما هذا بالنصَف[1]! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم! فهيئا لى زادًا.. ففعلتا ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج فى طلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أدركه حين نزل تبوك»[3].

لم يجد الرسول أحدًا من الروم فلم يتجاوز تبوك

وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك وصار على حدود دولة الروم، لم يجد أحدًا من العدو. ومن المحتمل أن يكون الروم آثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام، ليتحصنوا بحصونها حين بلغهم أمر هذا الجيش وقوته؛ كما يقول الدكتور هيكل. ومن المحتمل أيضًا - كما يقول السيد إميل درمنغم - أن يكون المسلمون قد عدلوا عن مواصلة زحفهم حينما علموا - خلافًا لما كانوا يظنون - أن هرقل لم يجهز جيشًا لغزو المدينة. ويذهب صاحب الإمتاع هذا المذهب، فيرى أن ما خُبِّر به النبى ﷺ من تعبئة هرقل لأصحابه، ومن دنوه إلى أدنى الشام كان باطلا؛

---

(١) بالنصف: بالعدل والإنصاف.

(٢) ناضحة: أحضر جمله فوضع عليه الرحل وأعده للسفر.

(٣) ليست تبوك بلدًا، وإنما هى حصن به عين ماء ونخل، يقع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، ويبعد عن المدينة بنحو اثنتى عشرة مرحلة.

وأن هرقل لم يُرِد ذلك ولا همَّ به.

وأيًا كان واقع الأمر فقد وقف رسول الله ﷺ عند تبوك لم يجاوزها. وبعث سراياه إلى من حول تبوك من نصارى العرب التابعين لدولة الروم، فصالحه أهل أيْلة وأذْرُح وجَرْبَاء ومَقْنَا ودُومَة الجَندل، على أن يعطوا الجزية ويدخلوا فى أمان الإسلام وعهده. وأقام رسول الله بتبوك نحو عشرين ليلة، ثم استشار أصحابه فى أن يجاوزوها إلى ما وراءها من ديار الشام، فقال له عمر: "يا رسول الله، إن كنت أمرت بالسير فسر". فقال صلى الله عليه وسلم: «لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فيه». فقال: "يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دُنُوُّك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يُحدث الله أمرًا!"..

فتبع ﷺ مشورة عمر، وأمر بالقُفول[1]؛ فرجع الجيش إلى المدينة، بعد أن أمَّن رسول الله حدود الدولة من ناحية الشمال، بما عقد من المعاهدات بينه وبين نصارى العرب المجاورين للروم؛ وكان رجوعه، صلى الله عليه وسلم. فى رمضان (ديسمبر سنة ٦٣٠). ولما قرب رسول الله من المدينة خرج الناس لتلقِّيه،

(١) القفول: الرجوع.

وخرج مع الناس الصبيان والنساء والولائد، وصعدت المخدَّرات[1] على الأسطحة تُشِدْن ويغنِّين، فرحًا بعودة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

كان ما نزل من الآيات فى شأن هذه الغزوة أطول وأشد ما نزل من القرآن فى شأن الغزوات

وفى أثناء رجوعه، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، نزل عليه ما نزل من سورة التوبة فى شأن الذين تخلفوا من المنافقين والمقصرين بغير عذر. "والآيات التى أنزلها الله على رسوله فى شأن هذه الغزوة، هى أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم[2]. وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام، وإفهام المسلمين مَغَبَّةَ تقصيرهم فى أداء هذه الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونُصرة نبيه، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مَزْلَقَة إلى الرِّدَّة والنفاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِروا فى سَبِيلِ الله اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنيَا مِن الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَياةِ الدنيا فى

---

(١) المخدَّرات: النساء المحجبات فى البيوت. وهن نساء الطبقة الراقية.

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٨ إلى آخر السورة.

الآخِرَة إلا قليلٌ * إلاَّ تَنفِروا يُعَذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا ويَسْتَبدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضرُّوهُ شيْئًا وَالله علَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ﴾[1]

ومضت الآيات تتحدث فى صراحة وعنف؛ ففضحت المنافقين، وكشفت المترددين، وأهانت طلاب الدعة والراحة، الذين آثروا ظل القعود فى بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء، ووَعْثاء السفر، ومتاعب الجلاد: ﴿فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُول الله وكَرِهُوا أنْ يُجَاهِدُوا بأمْوالِهِمْ وأنفُسِهم فى سَبيل الله وقَالُوا لا تَنْفِرُوا فى الحَرِّ قُلْ نَارُ جهنَّمَ أشدُّ حرًّا لَوْ كَانُوا يفْقَهُون * فلْيَضْحَكُوا قليلاً ولْيَبْكُوا كَثيرًا جزَاءً بمَا كَانُوا يكْسبُونَ * فإنْ رَجعَكَ الله إلَى طائفَةٍ مِنْهُمْ فاسْتَأْذَنُوكَ للخُروج فَقُلْ: لَنْ تخرُجُوا معىَ أبَدًا وَلَنْ تُقَاتلُوا معىَ عدُوًّا إنَّكُمْ رَضيتُمْ بالْقُعُودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخالفينَ * وَلاَ تُصلِّ عَلَى أحَد منهمْ مَاتَ أبَدًا وَلاَ تقُمْ عَلَى قَبْره إنَّهُمْ كَفرُوا بالله ورَسُوله وماتُوا وهُمْ فاسقُونَ * ولا تُعْجبْك أمْوالُهُمْ وأوْلادُهُم إنَّما يُريدُ الله أنْ يُعذِّبَهُمْ بهَا فى الدُّنْيا وَتَزْهَق أنْفُسُهُمْ وهُمْ كافرُونَ﴾[2].

---

(١) فقه السيرة، والآيتان من سورة التوبة رقم ٣٨، ٣٩.

(١) سورة التوبة الآيات ٨١ - ٨٥.

على كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بواجبه فى حمايتها وقت الخطر

والذى يَلفت النظر فى الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، أنها أشد ما نزل من القرآن فى شأن المخلفين، مع أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال، ولم يلاق المسلمون فيها عدوهم. ويبدو أن الأمر فى شأن الجهاد ليس أمر قتال يقع أو لا يقع، إنما هو أمرٌ واجب المسلمين فى حماية أمتهم من كل عدو يريد أن ينال منها، سواء أكان ذلك بالفعل أم بالنية، فواجب كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بنصيبه فى حمايتها، إلا أن يكون له عذر قاهر يحول بينه وبين أداء واجبه: ﴿لَيْس عَلَى الضُّعفَاء وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ على الَّذِينَ لاَ يَجدُون ما يُنفِقُونَ حرَجٌ إذَا نَصَحُوا لله وَرَسُوله ما عَلَى المحْسِنِينَ مِنْ سبِيلٍ والله غفُورٌ رَحِيمٌ * ولا عَلَى الَّذين إذا مَا أتَوْكَ لِتحمِلَهُمْ قُلْت لاَ أجِدُ ما أحمِلُكمْ عليْهِ تَوَلَّوْا وأعْيُنُهمْ تفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ألاَّ يجدوا ما يُنفِقُون * إنما السبيلُ علَى الذِينَ يستأذِنُونَكَ وهُمْ أغنِياءُ رضُوا بأن يكُونُوا معَ الخوالِفِ وطبع الله علَى قُلُوبِهِمْ فهُمْ لاَ يعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة الآيات ٩١ - ٩٣.

ومن هنا كان تخلف الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بغير عذر، نكولاً عن أداء الواجب المفروض على كل قادر فى الأمة، وتقاعدًا عن نصرة الجماعة التى ينتسبون إليها، وخَوَرًا وتميُّعًا فى الساعة الحرجة والوقت العصيب؛ فكان لا بد أن يُكشَف أمرهم للجماعة حتى لا تنخدع بهم بعد ذلك، وكان لابد أن يُؤَدَّبوا الأدب الذى يردعهم ويردع أمثالهم حتى يرعَوُوا؛ فإما أن يتوبوا ويرجعوا إلى صفوف الجماعة إن كانت فيهم صلاحية للبقاء، وإما أن تفرغ الجماعة من أمرهم وتَنبِذهم نبذ الغُثَاءِ فلا هم منها ولا هى منهم.. "فالذين يَضعُفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدًا عن الصف، وقايةً له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء، جناية على الصف كله، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير"[1].

كانت حملة القرآن قاسية على الذين قعدوا عن الخروج لنكولهم عن أداء أقدس واجب

من أجل ذلك حمل القرآن الكريم على الذين تخلفوا فى هذه الغزوة حملة شديدة، وقسا عليهم قسوة بالغة، فلامهم

(١) فى ظلال القرآن.

ووبخهم، وقرعهم أشد التقريع، وفضحهم أشد الفضيحة، وطعنهم فى أعز ما يعتز به الرجال ذوو الكرامة والحسيس.. وصفهم بالخسة وسقوط الهمة وتفاهة الغرض، وأنهم لا ينشطون إلا للمنافع العاجلة والأغراض الزائلة؛ أما جلائل الأعمال وعظائم الأمور، فليسوا من أهلها ولا طلابها ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ : لو اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * .... وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[1].

وعيرهم بالجبن والخَوَر والعجز والخمول، وأنهم ليسوا من ذوى الغَناء عند الشدة، ولا من أولى النجدة عند الخطر، يُشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدّح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُم مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * ... وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ

(١) سورة التوبة الآيات ٤٢ - ٥٨.

مَعَ القاعِدِين * رضُوا بِأنْ يكُونُوا مع الخوالِف وطُبِعَ علَى قُلُوبِهِمْ فهم لَا يَفقهُون﴾[1].

وبيَّن للجماعة أنهم فيها فساد ورجس، وأن قعودهم كان خيرًا لها من خروجهم، وأن سلامتها فى أن تطهر صفوفها منهم، لأنهم لا يؤمنون بأهداف الجماعة ولا يشاركونها مشاعرها، ولأنهم فيها من عوامل الهدم لا من عوامل البناء: ﴿ولَوْ أَرَادُوا الخُرُوج لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّة وَلكِنْ كَرِه الله انْبعاثَهم فثبطَهُمْ وقِيل اقْعُدُوا معَ القاعِدينَ * لَوْ خرجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكمْ إلَّا خَبالا ولَأَوْضَعُوا خلالَكُمْ يبْغونَكُمُ الفتْنة وَفِيكُمْ سمَّاعُونَ لَهُمْ، وَالله عليمٌ بالظَّالِمينَ * لقدِ ابْتغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وقلَّبُوا لَك الأمُورَ حتَّى جاء الحقُّ وظهَر أمْرُ الله وهُمْ كارهُون * ومِنهُمْ مَنْ يقُولُ ائْذَنْ لى ولا تفْتِنِّى ألا فى الفتْنةِ سقَطُوا وإنَّ جهَنَّمَ لمحِيطَةٌ بالْكَافرين * إن تُصِبْك حسنةٌ تسُؤْهُمْ وَإنْ تُصِبْك مُصِيبةٌ يقُولُوا قَدْ أخذنَا أمْرنا مِنْ قَبْلُ ويَتَوَلَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ. سيحْلِفُون بالله لكمْ إذا انْقلَبْتُم إلَيْهم لِتُعْرِضُوا عنْهُم فأعْرِضُوا عنْهُمْ إنهم رجس ومَأْوَاهُم جهنمُ جزاءً بما كَانُوا يكْسِبُونَ * يحْلِفُون لكُمْ لِترْضَوْا عنْهم فإنْ ترْضَوْا عنْهُم فإنَّ الله لا يرْضَى عن الْقوْمِ الفَاسِقِين﴾[2].

---

(١) سورة التوبة الآيات ٨٦ - ٨٧. (٢) سورة التوبة الآيات ٤٦ - ٩٦.

هكذا كان شأن القرآن مع المنافقين وطلاب المنفعة، من المتخلفين عن صفوف الجماعة.. حقّرهم وهوّن من شأنهم، ووضعهم حيث وضعوا أنفسهم مع الخوالف من النساء والصغار والعجزة والضعفاء، وكشف أمرهم للجماعة وحذرها من أخاديعهم، وأمرها بالإعراض عنهم.. فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون أعرض عن عتابهم، وقبل منهم ظاهر عذرهم، ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه.

أما الذين قعدوا فتورًا وكسلا فقد قبل الله توبتهم

أما الذين ركنوا إلى التراخي واستناموا إلى الفتور، كسلا وميلا إلى الدعة، واستراحًا للظلال فى حر الهجير، لم يدفعهم إلى ذلك شك ولا ارتياب، ولم يَدْعُهم إليه كيد ولا نفاق.. فهؤلاء قَبِل الله توبتهم، وأذن لرسوله فى العفو عنهم، وأمره أن يتقبل منهم بعض أموالهم، تطهيرًا لنفوسهم، وإيذانًا بقبولهم فى صفوف الجماعة، وأن يُطَمْئِنَ خوفهم بدعواته لهم، ويسكّن نفوسهم بصلواته عليهم، ويرجوع من الله العفو عنهم والمغفرة لهم: ﴿وآخَرون اعْترفُوا بذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عملاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا عسى الله أن يَتُوبَ علَيهِمْ إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ * خذْ مِنْ أمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطهِّرُهُمْ وتُزكِّيهِمْ بِها، وصَلِّ عليْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَالله سمِيعٌ عِليمٌ * ألَمْ يعْلمُوا أنَّ الله هُوَ يقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ويأْخُذ الصَّدقاتِ وَأَنَّ الله هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وقُلِ : اعْملُوا فسَيَرَى الله عملَكُمْ ورسُولُهُ والمُؤمِنُونَ وستُرَدُّون إِلَى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادةِ فيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْملُونَ﴾[1].

توبة كعب بن مالك وصاحبيه

وكان من المتخلفين ثلاثة صدَقوا رسول الله ﷺ فلم يختلقوا اعذارًا ولم يزيفوا قولا، فأرجأ النظر فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بما يشاء: هم هلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك. وفى قصة كعب بن مالك ـ كما رواها عنه غير واحد من الرواة ـ صورة بالغة من النفس الحساسة المؤمنة فى صدقها وصراحتها، وفى ضيقها وحيرتها، وفى نجاتها وفرحتها، وفى إخلاصها وتوبتها؛ وصورة أخرى من المجتمع الإسلامى فى ارتقاء وعيه وسمو إدراكه، وشدة إحساسه بذنب المذنب وتوبة التائب.

كعب يخلد إلى الراحة

قال كعب بن مالك: «... كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، انى لم أكن قَطُّ أقوى

(١) سورة التوبة الآيات ١٠٢ - ١٠٥.

ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنه فى تلك الغَزَاة: والله ما جمعتُ عندى قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومَفاوِز وعدوًّا كثيرًا، فجلَّى للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أُهْبةَ غزوهم، أخبرهم بوجهه الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.. وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فَطَفِقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إن أردت. فلم يزل يتمادَى بى حتى شَمر بالناس الجِدّ[1]، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا؛ فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم. فغدوت بعد أن فَصَلوا لأتجهز فلم أقض شيئًا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئًا؛ فلم يزل يتهادى بى حتى أسرعوا

---

(١) شمر الجدّ: فرغوا من استعدادهم وتأهبوا للسير.

وَتفرُّط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتنى فعلت - فلم يُقدّر لى ذلك؛ فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ أحزننى أنى لا أرى لى أُسوةً إلا رجلا مغموصًا[2] عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذَر الله من الضعفاء. ولم يَذْكرْنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجل من بنى سَلَمة: "يا رسول الله، حبسه بُرداه ونظره فى عِطفَيْه"[3] فقال معاذ بن جبل: "بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيرًا"! فسكت رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قال كعب: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ توجه قافلا من تبوك، حضرنى همى، وطَفِقْت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى.. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل[4] قادمًا زاح عنى الباطل، وعرفت أنى لم أنْجُ منه أبدًا بشىء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَه. وأصبح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قادمًا؛ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس

---

(١) بمعنى ضاعت الفرصة فى تداركه.

(٢) مغموصًا عليه: متهمًا بالنفاق.

(٣) أى شغله إعجابه بنفسه عن الخروج.

(٤) أظل: قرب.

للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله عَلانِيَتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.. حتى جئت.

كعب يصدق النبي في اعتذاره

فلما سلمت عليه تبسم تبسُّمَ المُغْضَب، ثم قال: «تعال».. فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك»؟ قلت: "بلى والله، وإني - والله يا رسول الله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سَخَطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلا[1] ولكني - والله - علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخطكَ عليَّ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تَجِد[2] عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عُقْبَى الله[3].. ولا - والله - ما كان لي من عذر! والله ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت عنك"!

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد

---

(١) أعطيت جدلا: قدرة على سبك الكلام وحسن التخلص.

(٢) تجد: تغضب.

(٣) عقبى الله: عفوه ومغفرته بعد.

صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فقمت؛ وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: "والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا؛ لقد عجزت ألاَّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلَّفون؛ فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله، صلى الله عليه وسلم"، فوالله ما زالوا يُؤنِّبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذِّب نفسى؛ ثم قلت لهم: "هل لقى هذا معى أحد"؟ قالوا: "نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك". فقلت: "من هما"؟ قالوا: "مرارة بن الربيع العَمْرى، وهلال بن أمية الواقِفى". فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، لى فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لى..

تأديب وتقويم

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه؛ فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف، فلبثْنا على ذلك خمسين ليلة.. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق، فلا يكلمنى أحد. وآتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة،

فأقول فى نفسى : "هل حرك شفتيه برد السلام أم لا" ثم أصلى قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تَسَوَّرْت[1] حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى وأحب الناس إلى - فسلمت عليه، فوالله مارد علىّ السلام؛ فقلت له : "يا أبا قتادة، أَنْشُدُك الله تعالى[2] : هل تعلم أنى أُحب الله ورسوله"؟ فسكت؛ فعدت له فنَشدتُه فسكت؛ فعدت له فنشدته فقال : "الله ورسوله أعلم". ففاضت عيناى[3] وتَوَلَّيْت حتى تَسوَّرت الجدار.

الروم يحاولون استغلال الفرصة للتفريق بين الرسول وأصحابه

قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نَبَطِىّ من أنباط الشام - ممن قَدِم بطعام يبيعه بالمدينة - يقول : "من يدل على كعب ابن مالك"؟ فطفق الناس يشيرون إلىَّ؛ حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابًا من ملك غسان، فقرأته فإذا فيه : "أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلْك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة،

---

(١) تسورت : اقتحمته من فوق السور.

(٢) أنشدك الله : بمعنى أستحلفك بالله.

(٣) فاضت عيناى : انهلت دموعى.

فالْحَقْ بنا نُواسك". فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء! فتَيَمَّمْت بها التَّنور فسَجَرْتُه[1] بها.. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني فقال: «إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك». فقلت: "أطلقها أم ماذا أفعل"؟ فقال: «لا، بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت: "يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع[2] وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه"؟ فقال: «لا، ولكن لا يَقْرَبنَّك». قالت: إنه - والله - ما به من حركة إلى شيء؛ والله ما زال يبكي مذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا". فقال لي بعض أهلي: "لو استأذنت رسول الله في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه"! فقلت: "والله لا استأذن فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وما يدريني ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب"؟

---

(١) سجرته: أشعلت بها النار في الفرن، يعني أنه أحرقها فيه.

(٢) ضائع: عاجز عن خدمة نفسه.

بشائر التوبة

قال : فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. ثم صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا؛ فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله : قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رَحُبَت.. سمعت صارخًا أوْفى[1] على «جبل سَلْع» يقول بأعلى صوته : "يا كعب بنَ مالك، أبشر"!.. فَخَرَرْت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء الفرج. وآذَن[2] رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا.. ركَضَ[3] رجل إليَّ فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوْفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشارته؛ والله ما أملك غيرهما يومئذ! واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنئونني بالتوبة، يقولون : "لِيَهْنِكَ توبةُ الله عليك"!.. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام

---

(١) أوفى عليَّ : بمعنى جاء مسرعًا.

(٢) آذن : أعلنها للناس.

(٣) ركض : أسرع بها نحوي.

إلىَّ طلحة بن عبيد الله يُهَرْوِل حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره؛ ولا أنساها لطلحة!..

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور: «أبشر بخيرِ يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك»..! قلت: "أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله"؟ قال: «لا، بل من عند الله»..

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: "يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقَةً إلى الله ورسوله"! فقال صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: "فإنى أُمسك سهمى الذى بخيبر". ثم قلت: "يا رسول الله، إن الله إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقًا ما بقيت"..

قال كعب: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى؛ ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبًا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى!.. وأنزل الله تعالى على رسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ تابَ الله عَلَى النَّبِيِّ والْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِين اتَّبَعُوهُ فى ساعة العُسْرَةِ مِنْ بعْدِ ما كَادَ يزيغُ قُلُوبُ فريقٍ مِنْهم ثُمَّ تَاب

عليهم إنَّهُ بِهِمْ رءُوفُ رحِيم * وعلَى الثَّلاثَةِ الَّـذِينَ خُلِّفـوا حتَّى إذَا ضاقَت علَيْهِمُ الأرْضُ بما رحُبتْ وضـاقَتْ علَيْهـمْ أنفُسـهُمْ وظَنُّوا ألَّا ملْجَأ مِن الله إلَّا إليْهِ ثُمَّ تاب علَيْهِـمْ لِيتُوبوا إنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * ياأيُّها الَّذِين آمنُـوا اتَّقُـوا الله وكُونُـوا مـع الصَّادِقِينَ﴾[1].

"هذه هي قصة الثلاثة الـذين خُلِّفـوا كما رواهـا أحـدهم كعب بن مالك، وفي كل فقرة منها عـبرة؛ وفيهـا كلهـا صـورة بارزة الخطوط من المجتمع الإسلامي ومتانة بنائه وصفاء عنـاصره، ونصاعة تصوره لمعنى الجماعة، ولتكاليف الدعوة، ولقيمة الأوامر، ولضرورة الطاعة...

صورة من روح المجتمع الإسلامي

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثـل هـذه الـروح عـزت كلمته.. فلننظر أين نحن الآن من هؤلاء السلف، ولننـظر أيـن روحنا مـن روح تلك العصبة، ثم لنـطلب النصر والعـزة إن استشعرنا من أنفسـنا بعض هـذه المشـاعر؛ وإلا، فلْنُسَـدِّدْ ولْنُقارِبْ، ولنحاول جُهد طاقتنا، والله المستعان"[2].

---

(1) سورة التوبة الآيات ١١٧ - ١١٩، وقد اخترنا في سرد هذه القصة رواية النويري نهاية الأرب مع الاستعانة في بعض العبارات بالروايات الأخرى.

(2) في ظلال القرآن، مع بعض التصرف.